الجوارى السميرات

طبقة خاصة

من الجوارى صنف آخر قد لا نفطن إلى وجوده فى عصرنا الحاضر ، وهو مزيج من ذلك النوع الذى رأيناه فى الحانات المغالى فى الفتنة وفى خدمة الزبن : ومن النوع الآخر الذى يعيش فى منازل الأسياد حياة الحرائر أو ما يشبه حياتهن ، ومن النوع الثالث الشائع الذى يعرض فى أسواق النخاسين . النوع الآخر الخليط من هذه الأنواع كلها ، والذى يطلق عليه اسم الجوارى السميرات يتألف عامة من القيان البارعات فى الغناء والرقص وفنون الغواية . يعشن فى كنف أسيادهن عيشة تتراوح بين عيشة أمثالهن فى عهدة النخاسين والمتسرين . ليس لأصحابهن عليهن غيرة السيد الأنوف ، وليس فى صدورهم حمية المولى المتفرد بسراريه ، فهم يسمحون لهن بالخروج إلى الناس والزائرين أو المرابطين — كما كانوا يقولون بلغة ذلك العصر — وهؤلاء يفدون فى ساعة معينة من النهار أو الليل ، فيجلسون إليهن ويصغون إلى غنائهن ، ويمتعون أبصارهم برقصهن البارع ،

وجمالهن الماتع ، والسيد يتلطف فى فرش المنزل بالبسط الغالية ، والنمارق المزركشة ، ويوزع الطنافس فى الزوايا ، ليستريح عليها هؤلاء المرابطون . وهو يتكلف لهم هذا العناء ، ويبش فى وجوههم لأنهم يحملون إليه الطرف والهدايا من أفخر الخمور ، وأطيب النقل ، وأندر العطور ، وشفيف النسج . وهم إلى جانب ذلك يبرون السيد أحياناً بالمال ، ويرفهون عنه بعض مشقة الحياة . ينتمون إلى جميع الطبقات الاجتماعية ، من قضاة وحكام وقواد وشعراء وتجار . وكل منهم يعطف على السيد صاحب الجارية أو الجوارى ، ويسهل له أموره ، ويحل له ما تعقد منها ، ويساعده فى قضاء حاجاته . يقصدون إليه من مكان قصى ، كما يقصدون الخلفاء والأمراء وعظماء الرجال . فيزار ولا يكلف الزيارة ، ويوصل ولا يحمل على الصلة ، ويهدى له ، ولا تقتضى منه الهدية . لا يهتم هذا القيان بغلاء الدقيق ، ولا عوز السويق ، ولا عزة الزيت ، ولا فساد النبيذ . وهو يستقرض ولا يرد ، ويسأل الحوائج فلا يمنع . يكنى إذا نودى ، ويفدى إذا دعى ، ويحبى بطريف الأخبار ، ويطلع على مكنون الأسرار . ويكفيه أصحاب النفوذ من المترددين عليه عادية الشرط والأعوان ، فيعيش مطمئناً (١).

---

(١) رسالة القيان ص ٧٣ — ٧٤

المرابطون

يكتفى كثيرون من هؤلاء المرابطين الذين يفدون على منازل القيانين فى زياراتهم على السماع والنظر ، وتناقل الأخبار ، وتطارح الشعر . ولعلهم كانوا أيضاً يجدون فيها ما يجده المعاصرون فى صالات الأدب من متعة ، غير أن القدماء يضيفون إلى وقار العلم والبحث الجدى بعض توابل الاجتماع من رقص وغناء . وكان بعضهم يفرج فى هذه الحلقات الأدبية الفنية عن نفسه ، بعد أن حجزها طول نهاره فى وقار عمله الرسمى ، فليس من الغرابة فى شىء إذا رأينا ابن فهم الصوفى عند سماعه غناء « نهاية » جارية ابن المغنى يضرب بنفسه الأرض ، ويتمرغ فى التراب ، ويهيج ويزبد ، فإذا دنا منه أحد عض بنابه ، وخمش بظفره ، وركل برجله[1]. أو إذا رأينا ابن غيلان البزاز عند ما يسمع ترجيعات « بلور » جارية ابن اليزيدى تنقلب حمالىق عينيه ، ويسقط مغشياً عليه ، فلا يستفيق إلا بعد أن ينضح بالكافور وماء الورد ، ويقرأ فى أذنه آية الكرسى والمعوذتين[2] أو إذا رأينا أبا الحسن الجراحى قاضى الكرخ الوقور عند ما يسمع

(١) الإمتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٦٦

(٢) الإمتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٦٧

غناء شعلة تبتل شيبته بالدموع حتى يرق له الحاضرون فتنحدر دموعهم رحمة له ، ورقة عليه . فقد كانت هذه المجالس تضم جماعات شتى ، متنوعة الأذواق ، متعددة المراتب والمقامات الاجتماعية . يوحد بينهم حبهم للغناء ، ورغبتهم فى التملى من الملاحة الدافقة فى وجوه القيان . وقد أحصى أبو حيان التوحيدى حوالى سنة ٣٦٠ للهجرة السميرات على ضفتى دجلة ، فإذا بهن يبلغن أربعمائة وستين جارية ، يجمعن بين الحذق والحسن والظرف والعشرة ، سوى من كان لا يظفر به ، ولا يوصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه ، وسوى ما كان يسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط فى وقت أو تمل فى حال[1] .

ولقد وضع الجاحظ رسالة فى القيان ، كتبها على لسان القيانين ، ووجهها إلى أهل الجهالة والجفاء وغلظ الطبع ، وفساد الحس ، وأورد فى مطلعها جدولا بأسماء مشاهيرهم فى عصره ، وذكر فضائلهم ومقامهم الرفيع فى المجتمع ، وسعى الناس فى خطب ودهم ، كعادته إذا أراد أن يهزل فى أمر ، أو أن يسخر من جماعة . وبوسعنا أن نتمثل بعض ما كان يدور فى مجالس السميرات من محاورات ومساجلات ، ومن تحايل فى إدخال السرور إلى قلوب المرابطين ،

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٨٣

ومن إسراف فى الشراب والتندر : بأن نقف على ما حدث يوماً فى مجلس منها . اشتهر فى المدينة ، وعرف بمجلس ابن نفيس .

مجلس ابن نفيس

كانت بصبص جارية ابن نفيس حلوة الوجه ، حسنة الغناء ، أخذت أسراره عن الطبقة الأولى . وكان مولاها صاحب قيان ، يزوره الأشراف ، ويستمعون إلى فتياته ، ويفد إليه فتيان قريش فى عهد الخليفة العباسى المهدى ، فينعمون بمجلس جاريته . وقد اجتمع أشراف المدينة عندها يوماً ، وتذاكروا أمر رجل يدعى مزيد ، وهو صاحب نوادر فى البخل ، حرى أن يتحدث عنه الجاحظ ، فزعمت بصبص أن بوسعها أن تأخذ منه درهماً . فوعدها صاحبها بأن يحررها إن لم يشتر لها مخنقة بمائة ألف دينار ، وثوب وشى ، وأن يجعل لها مجلساً بالعقيق ، وينحر فيه بدنة لم تقتب ولم تركب ، فيما إذا توصلت إلى الحصول على درهم مزيد . فطلبت إحضاره ، وأن يكف عنها الغيرة مهما بدا منها ومنه . وجىء به عند العصر ، وكان المجلس عامراً بالأشراف ، فأكلوا وشربوا ، وتساكروا وتنادموا . فأقبلت الجارية بصبص على مزيد فقالت : أبا إسحق . كأنك تشتهى

أن أغنيك . فقال : زوجته طالق إن لم تكونى تعلمين ما فى اللوح المحفوظ . فغنته . ثم مكثت قليلا وقالت : أبا إسحق ! كأن نفسك تشتهى أن تقوم من مجلسك فتجلس إلى جانبى وتداعبنى وأغنيك . فقال : امرأته طالق إن لم تكونى تعلمين ما فى الأرحام ، وما تكسب الأنفس غدا ، وبأى أرض تموت . فانتقل إلى قربها فغنته . ثم قالت : يرح الخفاء! أنا أعلم أنك تشتهى أن تقبلنى شق التين ، وأغنيك هزجاً . فقبلها وغنته . ثم قالت : أبا إسحق ! أرأيت أسقط من هؤلاء . يدعونك ويخرجوننى إليك ، ولا يشترون ريحاناً بدرهم . أى أبا إسحق ، هلم درهماً نشترى به ريحاناً . فوثب وصاح : واحرباه . إى . . . انقطع والله عنك الوحى الذى كان يوحى إليك . وعطعط القوم بها ، وعلموا أن حيلتها لم تنفذ عليه . ثم خرج ، فلم يعد إليها ، ورجع القوم إلى مجلسهم ، فكان أكثر شغلهم فيه حديث مزيد معها والضحك منه(١).

السميرات اليونانيات

كان فى بلاد اليونان فئة من الجوارى شبيهة كل الشبهة بهؤلاء . فئة تتألف من مجموعة كثيرة العدد من الفتيات البارعات

---

(١) الأغانى ج ١٢ ص ١١٦ — ١١٧

فى جمالهن وأدبهن وظرفهن ، يشاركن فى كل علم ، ويأخذن من كل فن بطرف . ينعمن فى البلاد اليونانية بحقوق وامتيازات لا تنعم بها النساء الحرائر . فهن يجلسن إلى الرجال سافرات الوجوه ، ويتحدثن إليهم ، ويحاورنهم فى المواضيع الأدبية والفنيه والفلسفية والعلمية ، ويستأثرن بعطفهم وحضورهم ساعات مديدة من النهار والليل ، وينظمن منازل خاصة بهن ، يستقبلن فيها الناس على اختلاف طبقاتهم ، وتعدد منازعهم وبلدانهم وأذواقهم وألوانهم . ويتفننن فى تزيين خدورهن بالطرف والمتاع النفيس ، ويسهر القانون على راحتهن ، وينظم حياتهن ويشجعهن فى عملهن .

مرد الأمر ، كما يرى بعض المؤرخين ، أن المتشرع اليونانى ، عند ما أذن لهؤلاء السميرات باحتراف مهنتهن علناً ، على رغم ما تؤدى إليه تجارتهن من تهديم الأسر ، ونشر الفوضى فى المنازل الزوجية ، حاول القضاء جهده على عادة مفسدة تفشت فى جميع المدنيات المغرقة فى الترف ، أى التدله بالغلمان ، هذه العادة الهدامة التى تسربت فيما بعد إلى البلاد الفارسية ، ثم انتقلت من هناك إلى مدنية العرب . لعل هذا كان السبب الرئيسى فى انتشار بيوت السميرات ، وفى محافظة الشرع عليها ، وذيوع هؤلاء الجوارى فى الحياة الاجتماعية الإغريقية .

هن عادة نخبة تختار من جماعات الجوارى . يعهد بهن صغيرات إلى نساء ماهرات فى تربية أمثالهن ، واقفات على أنواع الغواية ، وأسرار الفنون الجميلة ، ولا يفارقن معلماتهن إلا بعد أن يحذقن جميع ما يحتجن إليه فى حياتهن المقبلة .

يفد عليهن الفتيان الذين يطمحون إلى التعرف على ذوى المقامات الرفيعة ، ويتردد عليهن أيضاً الرجال الذين جازوا نصيباً من المقام ورجال الشرع والفلاسفة ، وكل من ينعم بدخل ثابت . فكل من له حظ من النفوذ ، أو يسعى ليكون له بعض المقام يحاول جاهداً أن يكون له مجلس فى منزل من منازل السميرات ، من الزعيم السياسى الوقور إلى الأفاك المغامر ، وما يتراوح بينهما من أجناس الأناسى وألوانهم . فتزدحم القاعات بالفيلسوف الزرى المظهر ، والتاجر الصورى ، والنوتى الجاف الطباع ، الملوح الوجه ، الخشن اليدين ، الذى يحلى أصابعه القاسية بالخواتم الثمينة من صنع سورية وفينيقية ، والسرى الأحمق الذى يضحى بثروته مقابل ابتسامة تنفرج عنها شفتا الغانية ، والمصارع المجدول العضلات الذى يحدث الصحب عن نتائج الأولمبياد ، ويمنى النفس بانتصارات باهرة فى مقبل الأيام . وكان اليونانيون ، وهم مشهورون بحب التطلع ، والوقوف على ما يجرى من الحوادث ، مغرمين بالوفود على مثل

هذه الاجتماعات حيث يتلاقى الشرق والغرب والرصانة المغالية فى الائتناد ، والطيش المتطرف فى التهور .

ينفق الضيوف فى هذه البيوت على قدر استطاعتهم من مالهم ولطفهم فى إيناس السميرات . ولم تكن الزوجات الشرعيات فى فهم هؤلاء إلا الحافظات على المنزل ، القيمات على المتاع ، المخلدات لاسم الأسرة بما ينجبنه من الأولاد فى سبيل الجمهورية الخالدة .

الحياة فى مجالس السميرات زاخرة بالجديد من كل فن وعلم . تمتزج فيها الأنغام بالرقص ، وتهرق الخمور المعتقة ، ويشيع فيها المرح ، وتضيع الفروق العرقية ، وتطلق الألسنة من عقالها ، ويتعالى دخان البخور ، وتسكب العطور على الوجوه والنحور ، وتبدى السميرات القليل الذى بقى خافياً من أسرار جمالهن . وتتشابك أحياناً أحاديث العلم بالجدل السياسى والفلسفى . والسميرات العارفات بفنون الكلام ، الحافظات لأشعار الأقدمين والمحدثين يوشين أحاديثهن بما فى ذاكرتهن منها ، ويرتجلن أحياناً أبياتاً تناسب المقام ، مما يحول تلك المجتمعات إلى حلقات ثقافية نادرة المثال . ولهذا أسرف رجال الفكر والعلم واللغة فى التردد على السميرات للتمتع بمطالعهن ، والإصغاء إلى ما يدور هناك من المباحث البارعة .

كانت علاقات هؤلاء بالسميرات بريئة أحياناً ، لأنهن كن يحصرن قلوبهن وفتنتهن الكاملة فى الذين ينفقون عليهن الأموال، ويبذلون فى سبيلهن كل ما يشأن ؛ فيقضون القسم الأوفر من وقتهم فى منازلهن ، ويشتركون فى حلقات الطرب والأدب وينظرون إلى تزاحم الضيوف حول ربة البيت وسعيهم إلى اكتساب عطفها ، دون أن تتأثر فى نفوسهم أوتار الغيرة . فالسميرة كانت إذن كناية عن زوجة ثانية ، ولكنها أكثر علماً ، وأرشق حركة ، وأبرع جمالا من تلك التى تنزل فى الخدر . وأبناؤها يتبناهم الرجل المسؤول ، ويضمهم إلى أولاده الشرعيين .

مآدب السميرات

أهم الأدوار التى يقوم بها هؤلاء السميرات اشتراكهن فى الاحتفالات والمآدب التى تختلط فيها فنون الغواية بالأدب الرفيع ، والإسراف فى الطعام والشراب بالبراعة فى الرقص والألعاب البهلوانية . وفى الولائم يتناول اليونان أحاديث السياسة والفن والأدب وأخبار الفتوح ، ويفصلون النظريات الفلسفية الشائعة ، ويتناشدون القصائد ، ويبدى كل من الشرب أقصى ما فى نفسه من براعة ، ليفتن الحاضرين ، ويسترعى انتباههم .

تقام الولائم عادة عند المساء فى المنازل الخاصة، وتزين قاعة الطعام بالغصون الخضراء ، وتنثر الزهور على الأرض ، وتوقد الشموع ؛ وهى بشكل ثريات تقوم على عمد مركزة بالأرض على قاعدة مثلثة الأقدام ، وتضاء إلى جانبها سرج الزيت أو توزع فى أنحاء القاعة . وعند ما يبدأ الضيوف بالوفود يقف العبيد والجوارى عند المدخل لاستقبالهم والترحيب بهم ، فينزعون أخفافهم ، ويغسلون لهم أيديهم وأرجلهم فى آنية من الفضة أو الذهب ، ويعطرونهم بالروائح الطيبة ، ويجعلون على رؤوسهم أكاليل الزهر .

من تقاليد هذه الولائم أن لا يتوجه المدعو رأساً إلى قاعة الطعام ، بل أن يبدأ بالتفرج على غرف البيت ، إلى أن يصل عرضاً إلى المائدة ، فيبدى عندئذ إعجابه الشديد بما يراه من ترتيب وتنظيم ، ومن رياش فاخر ، وزهور عطرة ، وأنوار مشعة ، وأسرة منتظمة . ويتقدم فيأخذ له مقعداً حول المائدة ، وهى مستطيلة قائمة الزوايا من الخشب الصقيل ، عارية من الأنماط ، أما المقاعد فهى على أنواع : منها المفردة ذات المساند المرتفعة ، يرقى إليها المدعو بدرجة أو اثنتين ، ومنها المفردة البسيطة ، ومنها أسرة مستطيلة ، وهى عادة ثلاثة مقابلة لجهات ثلاث من المائدة . وتترك الرابعة لتقديم ألوان الطعام .

يتسع كل واحد منها لثلاثة أشخاص أو أربعة فيتمدد عليها المدعوون ، ويتكئون على الذراع اليسرى ، ويتناولون ما يشاؤون باليمنى ، وتفصل بينهم مساند مغطاة بالنسيج النفيس الموشى . وقد اقتبس اليونان عادة استعمالها عن الشرقيين ، ولا يعرف تماماً تاريخ انتقالها إلى المنازل الإغريقية ، ومن الثابت أنها كانت شائعة فى المآدب العامة أيام أرسطو . أما المدعوون المتقدمون فى العمر أو الضخام الأجسام ، فكانوا يؤثرون الجلوس على المقاعد العادية أو البقاء وقوفاً .

يجعل بين أيدى المدعوين الممتازين كؤوس كبيرة محلاة بالذهب ومزينة بالنقوش ، وتنقل أحياناً من مدعو إلى آخر ابتداء من اليمين ، فيشرب كل منهم بدوره . أما الطعام فهو متعدد الألوان ، لأن الإغريق عرفوا جميع الطيبات التى يلذ بها المعاصرون ، فتزخر موائدهم بلحوم الخنزير والجدى والعجل والأرنب والأوز والبط والدجاج والحجل والحمام والسمانى وسواها . غير أنهم لم يعرفوا السكر فى صنع الحلويات والمربيات ، بل استعاضوا العسل عنه . وأما الخمور فكثيرة الأنواع لديهم ، يمزجونها أحياناً بالثلج الذى يستقدمونه من أعالى الجبال ، أو يدلونه فى الجرار المملوءة به إلى أعماق الآبار الباردة .

لم تكن الأطعمة التى تقدم للزائرين سائلة ، ولا تستعمل

على الموائد إلا ملعقتان اثنتان كبيرتان ، يسكب بالواحدة الطعام فى الأطباق ؛ وتغرف بالثانية الخمرة من الأباريق لتوضع فى الكؤوس . يتألف الطعام فى مثل هذه الولائم من ثلاثة ألوان : الأول من الخضر ، ولا سيما القنبيط ، ومن الصدف والبيض ، والثانى من الطيور الداجنة وطرائد الصيد ، والثالث من الحلويات والسكريات والفواكه . وتقدم كل هذه الألوان مقطعة مجزأة ليسهل تناولها باليد ، لأنهم لا يستعملون الشوك والسكاكين . وعند تقديم اللون الثالث تبدأ المنادمة ، فتقبل عندئذ ، الجوارى الموسيقيات والمغنيات والراقصات ، وقد طلين وجوههن بالمساحيق ، وسودن عيونهن بالكحل ، وأطلن أشفار الجفون وصلبنها باستعمال مسحوق المسك ، وأخذن بأيديهن القيثارات والنايات فيبدأن بالرقص والغناء والضرب على الآلات أو النفخ فيها . وأشهر هؤلاء الجوارى هن اللواتى يلعبن على القيثارات الصغيرة ، ويرافقن نقرها بألحانهن ورقصهن . ولم يكن يتوصل إلى إجادة هذه المهنة إلا السميرات المدربات المخرجات على أيدى الاختصاصيين . يرتدين الأثواب الموشاة برسوم الزهر الخاصة بهن وحدهن ، وهى عادة أثواب شفافة . وكن رشيقات الحركة لمغالاتهن فى التمرن والرياضة على فنهن ، بارعات فى إبراز الهيئات المثيرة للشعور .

كانت الأجور التى تدفع لهن باهظة ؛ هذا إذا لم يكن ملك صاحب الدعوة أو صاحبتها . ويعاونهن جوار من نوع آخر . ينتسبن عادة إلى جزر الأرخبيل أو إلى البلاد السورية ، فيرسمن بأقدامهن وكل عضو من أعضائهن فى مخيلة المدعووين صورة مثيرة . وتكاد ثيابهن المجزومة الشفافة لا تخفى شيئاً من أسرار أجسامهن . وفى غمرة ثورتهن الفنية يتوصلن إلى فك العقدة التى تضم شعورهن فتنثر سوداء على أكتافهن البيضاء ، وحل العقدة الثانية التى تربط الغلالة المطيفة بأجسامهن ، فيظهرن عاريات ، وينطرحن على رخام القاعة وهن فى حالة من السكر الفنى .وقد ترقص الجوارى أحياناً مترافقات حسبما يرغب المدعوون أو يشاركهن بعضهم . وتقوم أخريات بحركات بهلوانية أثناء الرقص والغناء ، فيرقصن على لوحة من الخشب ، غرزت فيها رءوس حادة من المعدن ، فيختلن بخفة بحيث لايدسن على المسامير ، وترافق الموسيقى الموقعة جميع هذه الأنواع من الرقص .

فى هذا الجو المملوء بالعطور وروائح الخمرة والمساحيق والأطعمة كان الرجال يكشفون عن صدورهم ، يستلقون على الوسائد ، وأجسامهم تلمع من الزيت المعطر أو العرق المتصبب منهم ، وتقطر من شعورهم العطور المهرقة عليها . وفى هذه الأثناء ، يتسرب إلى قاعة المأدبة أناس غرباء متطفلون ،

فيشتركون فى الشرب والرقص والغناء .

من عادة المدعوين الانصراف أحياناً إلى بعض الألعاب ، ولا سيما ذلك النوع الأثير عندهم فى مثل هذه الحالات ، وهو يقوم على قذف ما تبقى فى كؤوسهم من الخمر إلى ناحية فى الغرفة ، متخذين من أحد الأوعية هدفاً لمثالاتهم ، فتمتلىء أرض القاعة بالشراب المسفوح . ويسيل إلى العتبة لأن السكارى يخطئون غايتهم .

عند ما يبلغ الخمار أوجه ، يتبارى الشرب فى استمالة الراقصات ، فيتوزعونهن ، ويحدث أحياناً ما ليس من حدوثه بد . ولا يطلب الذين غالوا فى شرابهم من هؤلاء السميرات إلا أن يقدمن لهم إناء يرجعون فيه ما طعموه وشربوه . وكل هذا يحدث أمام أنظار الجميع ، دون أن تثير هذه المشاهد أنفة أو خجلا . وعند ما يتنفس الفجر يتسلل بعضهم إلى منازلهم ، ويبقى الاخرون غارقين فى سبات عميق . وهذه المجالس كانت محرمة على الحرائر ، فتقتصر على الرجال والجوارى .